الافتتاحية

رحيل (زارع الإشارات)

غسان زقطان

في الأول من أيار الماضي مات حسين البرغوثي، في الرابعة والربع تقريباً، كنت إلى جانبه مع أصدقاء آخرين وكان ذلك مؤلماً وعميقاً ولا يشبه الموت.

قبل يومين من رحيله جلسنا طويلاً، فرنسوا أبو سالم ومراد السوداني وأنا ..، كنت أحاذر أن أرهقه بالحديث. وبدا، على غير عادته، صموتاً في الأيام الأخيرة، كان الكلام ينهك رئته ويسرق الأكسجين الذي تحتاجه .. فجأة بدأ يتحدث، وبدا أنه يسترد صوته وحيويته وقدرته المذهلة على مدّ تلك الجسور الذكية بين المعرفة والإبداع ... تلك، بالضبط، كانت نقطة حسين القوية، وهناك كان يتبدى امتيازه...، عشرات الممرات الصغيرة التي يبدأ بنسجها وتمتين خيوطها باندفاع لا يخلو من البهجة، وتجسيد تلك الجزر المعزولة باليابسة.

حسين كان بالنسبة لي بدايات تأسيس «بيت الشعر» في فلسطين، وهموم وجدل الأعداد الأولى من «الشعراء»، العدد الخاص بـِ «محمود درويش» واللقاء الطويل والحيوي معه في «بيت الشعر»، الإعداد ونقاش الأسئلة وتحضير كل شيء والاتفاق على ذلك، ثم خروج حسين عن الأسئلة المعدة والاتفاق نفسه والذهاب إلى أسئلته الخاصة والمؤجلة ...

الندوات الأولى الوفاء لـِ عبد اللطيف عقل وإرثه ...

قلق الشاعر وكاتب السيرة والقسوة المخلصة في الرأي ...

في الأول من أيار في الرابعة والربع صباحاً، فقدت صديقاً حقيقياً وشريكاً ومجادلاً لا أظن أنني سألتقي بمن يشبهه ...

وفقدت «الشعراء» واحداً من أهم المساهمين في وجودها وفقد «بيت الشعر» أحد مؤسسيه وكاتبي بيانه التأسيسي.

حسين الذي واصل جدله وقدرته العميقة على وضع الإشارات الصحيحة في فضاء الآخرين وعتبات

كتبهم، وكان صامتاً، تماماً، عندما وضعناه على عربة المستشفى في تلك الصبيحة الضبابية الباردة ودفعنا جسده إلى الثلاجة، تذكرت فجأة وقوف أمجد ناصر أمام جسد جميل حتمل في باريس وقصيدة نزيه أبو عفش المهداة إلى جميل في كاتدرائية فرنسية ... تذكرت سعد الله ونوس في كتابات فيصل دراج وأصدقائه الذين رافقوه حتى أغمض عينيه ...، البياتي الذي دفن قريباً من ابن عربي بعيداً عن بغداد، ... حسين جميل البرغوثي الذي لم يخن ثقافته، الثقافة والمعرفة التي حولها ببساطة وقوة إلى سلوك يومي، هذه الثقافة التي جعلته خصماً عنيداً لفساد المؤسسة الثقافية وجمودها واصل جدله معها، وهو الصامت الآن، وواصل وضع إشاراته الصحيحة على عتبتها التي علاها الغبار والكسل والانسحاب ... غبار الغياب الذي قاومه طويلاً وهو الدؤوب العنيد .

كلما كنت أجلس على المقعد الأبيض البلاستيكي المواجه له كنت أعرف أنها تتقدم وأن المساحات المتبقية لنا تضيق وأنها تتحكم الآن في كل شيء، ومثل تعويذة شريرة كانت تحكم قبضتها على المكان. لذلك بدت فكرة أنه لم يتعشّ بعد ضرورية وملاذاً لحمايته من الموت وحماية المكان من غيابه.

كان هناك دائماً من يسند ظهره إلى الحائط في الممر الضيق الذي تركه السرير ويسند يد حسين المنتفخة، اليد التي كتبت والتي طرق بها موائد كثيرة في جدالاته أثناء مروره العاصف، اليد التي ما زال الهواء يحوم حيث لوحت وإشارت، اليد التي تأبطت ذراع أصدقاء كثر وحوطت خصوراً كثيرة واحتضنت وربتت ورأت.

كانت يده هناك معلّقة ومنهكة ومتورمة وكنت أواصل من مكاني ترتيب انشغالاتها القديمة وذكرياتها وذهابها الحميم.

في الرابعة صباحاً بدأ جنود الاحتلال يطلقون النار في الشوارع المحيطة بالمشفى، كان صوت الرصاص يصل إلينا في الغرفة، وكانوا يقتربون من قلب رام الله وكانت أصوات الركض وإعداد البنادق في أيدي المقاومين تصل إلينا، أيضاً، من الشارع القريب، الدواء الذي انتظره لم يصل بعد، اعتقله جنود الاحتلال على جسر الكرامة، رغم أن الوقت كان متأخراً ولكنه كان حافة أخرى للتعلق.

وبينما كنت أدفع العربة معهم، في الشارع الخاوي إلا من قرقعة عجلاتها وطلقات القناصة، كنت أفكر أننا بضجتنا تلك نوقظ رام الله ... في هذه الصبيجة الباردة ونحن ندفع عربة عليها جسد حسين جميل البرغوثي.

في هذا العدد محاولة من زملائه لتذكره، وهي المحاولة التي سمح بها الوقت والظرف على أمل أن نواصل العمل في أعداد قادمة.